الباب الأول

في ظلال العهد المكّي

مولد الرسول ﷺ

عن أبي قتادة الأنصاري : أن أعرابياً قال : يارسول الله ، ما تقول في صوم يوم الإثنين ؟

فقال : « ذاك يومٌ ولدتُ فيه ، وأنزل عليَّ فيه »[1] .

* * *

ضبط العلماء مسألة يوم المولد الشريف ، فقال ابن إسحاق : ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين ، عام الفيل ، لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول[2] .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله : عن أبي الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقُباثَ بن أشيم الكناني ، ثم الليثي : يا قباث! أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ قال : رسول الله ﷺ أكبر مني ، وأنا أسنُّ منه ، ولد رسول الله عام الفيل ، ووقفتْ بي أمي علىٰ رَوْث الفيل محيلاً أعقله ، وتُنبىء رسول الله ﷺ علىٰ رأس أربعين[3] .

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (١٩٧) ، مسند أحمد : ٤/ ٢٩٩ ، السنن الكبرىٰ للبيهقي : ٤/ ٣٩٣ .

(٢) سيرة ابن هشام : ١/ ١٧١ ، سنن الترمذي : ٤/ ٥٨٩ .

(٣) البداية والنهاية : ٢/ ٢٦٢ .

ورحم الله القائل :

تجلّىٰ مولد الهادي وعمّت ... بشائره البوادي والقصابا
وأسدتْ للبرية بنت وهبٍ ... يداً بيضاء طوّقت الرقابا
لقد ولدته وهّاجاً منيراً ... كما تلد السموات الشهابا
فقام علىٰ سماء البيت نوراً ... يضيء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكاً ... وفاح القاع أرجاء وطابا

فسلام الله عليك وصلواته في كل لحظة وعدد يارسول الله ، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها .

* * *

الرسول النور!!

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إني عبد الله وخاتم النبيين وأبي منجدلٌ في طينته ، وسأخبركم عن ذلك ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة أخي عيسىٰ ، ورؤيا أمي آمنة التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » .

وإن أمّ رسول الله ﷺ ، رأت حين وضعَتْهُ له نوراً أضاءت لها قصور الشام ، ثم تلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٥ـ٤٦])[1] .

* * *

أخذ الله سبحانه وتعالىٰ العهد علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين ، أن إذا جاءكم رسول آخر الزمان أن تصدّقوه وتعزّروه وتتبعوا النور الذي جاء معه ، لذلك كان من دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨ـ١٢٩] .

وهكذا بشّر عيسىٰ عليه السلام بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، كما في القرآن الكريم : ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا

---

(١) مستدرك الحاكم : ٢/ ٤١٨ ، دلائل البيهقي : ١/ ٨٠ ، مسند أحمد : ٤/ ١٢٨ .

بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف : ٦] .

أجل!

إنه الرسول النور ، الذي جاء لهداية البشر . قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة : ١٥ـ١٦] .

* * *

أحمد مكتوبٌ على اللسان!!

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : سمعت أبا طالبٍ يحدّث أن آمنة بنت وهب ، لما ولدت النبي ﷺ جاءه عبد المطلب ، فأخذه وقبّله ، ثم دفعه إلىٰ أبي طالب وقال : هو وديعتي عندك ، ليكوننّ لابني هذا شأن ، ثم أمر فنُحرت الجزائر ، وذُبحت الشاء ، وأُطعم أهل مكة ثلاثاً ، ثم نحر في كل شعب من شعاب مكة جزوراً ، لا يُمنع منه إنسانٌ ولا سبع ولا طائر[1] .

* * *

إنه فرح عبد المطلب بسيدنا رسول الله ﷺ ، وفي رواية أخرىٰ :

أن عبد المطلب ، حمله وأدخله في جوف الكعبة ، ثم قام يدعو الله ويتشكّر لله تعالىٰ ، الذي أعطاه إياه ، ثم راح ينشد :

الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلامَ الطيِّبَ الأردانِ
قد ساد في المهد علىٰ الغلمان ... أُعيذُه بالبيت ذي الأركانِ
حتىٰ يكون بُلْغَةَ الفتيان ... حتىٰ أراه بالغ البنيانِ
أُعيذه من كل ذي شنآن ... من حاسد مضطرب الجنانِ
ذي همّة ليس له عينان ... حتىٰ أراه رافع اللسانِ

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم : ١/ ١٧٣ .

أنت الذي سُمِّيتَ في الفرقان في كتب ثابتةِ المباني
أحمد مكتوبٌ علىٰ اللسان[1]

أجل!

وكيف لا يفرح عبد المطلب بمولد رسول الله ، وهو الذي سمع من أحبار اليهود وآخرين أنه سيولد نبيّ آخر الزمان ، وهو محمد صلوات الله عليه .

ولذلك وقف العلماء طويلاً عند أفضلية ليلة المولد النبوي الشريف ، من ذلك ما قاله العلامة أحمد محمد القسطلاني (ت : ٩٢٣ هـ) :

فإن قلتَ : إذا قلنا بأنه عليه الصلاة والسلام ولد ليلاً ، فأيهما أفضل :

ليلة القدر ، أو ليلة مولده ﷺ ؟

أجيبُ : بأن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن ليلة المولد ليلة ظهوره ﷺ ، وليلة القدر معطاة له ، وما شرف بظهور ذات المشرف من أجله أشرف مما شرف بسبب ما أعطيه ، ولا نزاع في ذلك ، فكانت ليلة المولد ـ بهذا الاعتبار ـ أفضل .

الثاني : أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها ، وليلة المولد شرفت بظهوره ﷺ فيها ، ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر ، علىٰ الأصح المرتضىٰ ، فتكون ليلة المولد أفضل .

الثالث : أن ليلة القدر وقع التفضيل فيها علىٰ أمة محمد ﷺ ، وليلة

---

(١) البداية والنهاية : ٢/ ٢٦٥ ، طبقات ابن سعد : ١/ ١٧٥ ، دلائل البيهقي : ١/ ١١٢ .

المولد الشريف وقع التفضيل فيها علىٰ سائر الموجودات ، فهو الذي بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين ، فعمت به النعمة علىٰ جميع الخلائق ، فكانت ليلة المولد أعم نفعاً ، فكانت أفضل .

فيا شهراً ما أشرفه وأوفر حرمة لياليه ، كأنها لآلىء في العقود ، ويا وجهاً ما أشرفه من مولود ، فسبحان من جعل مولده للقلوب ربيعاً وحسنه بديعاً :

يقـول لنـا لسـان الحـال منـه وقـول الحـق يعـذب للسميـع
فوجهي والزمان وشهر وضعي ربيـع فـي ربيـع فـي ربيـع[1]

* * *

(١) المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية : ١/١٤٦ـ١٤٧ .

العصمة حتىٰ قبل الرسالة!!

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما هممتُ بما كان أهل الجاهلية يُهمّون به إلا مرتين من الدهر ، كلاهما يعصمني الله تعالىٰ منهما ، قلتُ ليلةً لفتًى كان معي من قريش ، في أعلىٰ مكة : لي أغنام لأهلها ترعىٰ ، أبصر لي غنمي حتىٰ أسمُرَ هذه الليلة بمكة كما تسمرُ الفتيان » ، قال : نعم ، « فخرجتُ فلما جئت أدنىٰ دارٍ من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوفٍ وزمر ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلانٌ تزوَّج فلانةً لرجل من قريش تزوّج امرأة ، فلهوتُ بذلك الغناء والصوت حتىٰ غلبتني عيني فنمتُ فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعتُ فسمعتُ مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوتُ بما سمعت وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، ثم رجعت إلىٰ صاحبي ، فقال : ما فعلتَ ؟ فقلت : ما فعلتُ شيئاً » . قال رسول الله ﷺ : « فوالله ما هممتُ بعدها أبداً بسوءٍ مما يعمل أهل الجاهلية حتىٰ أكرمني الله تعالىٰ بنبوّته »[1] .

* * *

وهذا من عظيم قدره ﷺ ، وعلوِّ مكانته عند ربه عز وجل .

---

(١) مستدرك الحاكم : ٤/ ٢٤٥ ، دلائل البيهقي : ٢/ ٣٣ .

ذلك أن الله سبحانه كفله واصطنعه علىٰ عينه ، وأبعده عن كل مكروه ، وهذا الأمر كان قبل بعثته واستمرّ حتىٰ انتقاله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وقوله أيضاً :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٩٤-٩٦] .

وقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ [الطور : ٤٨] .

فصلوات الله وسلاماته علىٰ النبي المعصوم والرحمة للعالمين .

* * *

خوف الرسول من نسيان القرآن!!

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة : ١٦] قال :

كان النبي ﷺ يُعالج من التنزيل شدّة ، وكان يحرّك شفتيه ، فقال لي ابن عباس : أحرّكهما لك كما كان رسول الله يحركهما ، فقال سعيد : أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما ، فحرَّك شفتيه فأنزل الله عز وجل :

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة : ١٦ـ١٧] .

قال : جمعه في صدرك ثم تقرؤه ، فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ، قال : فاستمع له وأنصت ، ثم إن علينا أن تقرأه ، قال : فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام ، استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه[1] .

* * *

علىٰ الرغم من أن الله سبحانه وتعالىٰ بيَّن لحبيبه المصطفىٰ ﷺ أنه هو وحده الحافظ للقرآن ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

---

(١) صحيح البخاري : ٦/ ٢٤٠ ، صحيح مسلم : ١/ ٣٣٠ ، سنن النسائي : ٢/ ١٤٩ .

علىٰ الرغم من ذلك ، فقد كان الرسول يخاف أن يتفلّت من القرآن ولو كلمة واحدة!!

لأنها الأمانة والمسؤولية تجاه الوحي السماوي ، وليس ذلك أمراً سهلاً ، إنما القضية كما قال تعالىٰ :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل : ٥] .

* * *

عالمية الرسالة الخاتمة!!

عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر بن الخطاب إلىٰ النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، إني مررتُ بأخٍ لي من بني قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟

قال : فتغيّر وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت ، فقلت : ألا ترىٰ ما بوجه رسول الله ؟

فقال عمر : رضينا بالله تعالىٰ رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، قال : فسُرِّي عن النَّبي ﷺ وقال : « والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسىٰ ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين »[1] .

* * *

أجل!

فكل نبيٍّ أُرسِل إلىٰ قومه خاصة ، بينما رسول الله ﷺ بُعِث إلىٰ الناس كافة .

مصداق ذلك ما نقله الحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خاطب الله نبيَّه محمداً بقوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا

---

(١) مسند أحمد : ٣/ ٣٨٧ ، دلائل النبوة لأبي نعيم : ١/ ٥٠ .

﴿وَنَذِيرًا﴾ [سبأ : ٢٨] فأرسله إلىٰ الجنّ والإنس[١] .

ذلك لأن الله تعالىٰ ختم بمحمدٍ ﷺ الرسالات ، فكان الإسلام هو الدين الخاتم ، وكان الرسول خاتم النبيين والمرسلين .

مصداق ذلك ما رواه جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال : « أنا قائد المرسلين ولا فخر ، وأنا خاتم النبيين ولا فخر ، وأنا أول شافع ومشفَّع ولا فخر »[٢] ﷺ .

* * *

(١) مستدرك الحاكم : ٢/ ٣٥٠ ، دلائل البيهقي : ٥/ ٤٨٧ .
(٢) دلائل النبوة للبيهقي : ٥/ ٤٨٠ .

قمة الوفاء!!

قال ابن هشام : وحدثني من أثق به ، أن جبريل عليه السلام ، أتىٰ رسول الله ﷺ فقال : أقرىء خديجة السلام من ربها ، فقال رسول الله ﷺ : « يا خديجة هذا جبريل يُقرئك السلام من ربك » .

فقالت خديجة : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلىٰ جبريل السلام[1] .

* * *

إنها أول امرأة تدخل في دين الإسلام .

وكان لها الدور الكبير في مناصرة الدين وتثبيت فؤاد النَّبي ﷺ ، والتخفيف عنه صلوات الله عليه .

لذلك وغيره نالت رتبة رفيعة ، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال : « خير نسائها مريم ، وخير نسائها خديجة »[2] .

وفي رواية أخرىٰ : « حسبك من نساء العالمين : مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون »[3] .

والشيء الرائع أن رسول الله ﷺ عاش معها طيلة حياتها لم يتزوج عليها ، حتىٰ ماتت ، فتزوج كل نسائه من بعد موتها!

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ٢٥٩ .

(٢) صحيح البخاري : ٥/ ٤٧ .

(٣) سنن الترمذي : رقمه (٣٨٧٨) .

بل إنه ﷺ كان يذكرها كثيراً ـ بعد موتها ـ مما جعل عائشة رضي الله عنها تغار منها!!

فعن عائشة قالت : كان النَّبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنىٰ عليها فأحسن الثناء ، قالت : فغرتُ يوماً فقلت : ما أكثر ما تذكرها حمراء الشِّدق ، قد أبدلك الله بها خيراً منها ، قال : « ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها ، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدَّقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء »[1] .

* * *

(١) مسند أحمد : ٦/١١٧ .

لا مساومة في قضايا العقيدة!!

عن ابن عباس أن قريشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً فيكون أغنىٰ رجل بمكة ، ويزوِّجوه ما أراد من النساء ، ويطؤوا عقبه . فقالوا : هذا لك عندنا يا محمد ، وكفَّ عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلةً واحدةء فهي لك ولنا فيها صلاحٌ ، قال : « ما هي ؟ » .

قالوا : تعبد آلهتنا سنة ، اللات والعزىٰ ، ونعبد إلهك سنة ، قال : « حتىٰ أنظر ما يأتي من عند ربي! » ، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ١ـ٦] .

وأنزل الله عز وجل : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٤ـ٦٦] »[1] .

* * *

شيء عجيب!!

فالرسول ﷺ يريد إنقاذهم مما هم فيه ، وهو بذلك لا يطلب مالاً ،

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس : ١/ ١٠٦ ، تاريخ الطبري : ٢/ ٣٣٧ .

ولا يبتغي زعامة ، ولا يريد جاهاً ولا ملكاً ، إنما يريد منهم « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » .

أما هم ، فإنهم يساومونه علىٰ عقيدة التوحيد ، يقدمون له الأموال الطائلة ، ويغرونه بالزعامات الدنيوية ، وتارةً يعذبونه وأصحابه ، وتارةً يطلّقون بناته ، وصدق القائل : أريد حياته ويريد موتي .

لكن القضية محسومة ، فلا مجاملات ولا مساومات ولا أنصاف حلول ، إنما المسألة في العقيدة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦] .

* * *

إنه الثبات!!

كان ورقة بن نوفل يمرُّ ببلال بن رباح وهو يُعذَّب ـ حيث كان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه علىٰ ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع علىٰ صدره . . . ـ وهو يقول : أحدٌ أحدٌ ، فيقول : أحدٌ أحدٌ والله يا بلال ، ثم يقبل علىٰ أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جُمح فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه علىٰ هذا لأتَّخذنه حناناً[1] ، حتىٰ أعتقه أبو بكر الصديق[2] .

* * *

أجل!

لقد ثبت الرعيل الأول علىٰ المبدأ ثباتاً لم يعرف التاريخ مثله ، حتىٰ أن الكثيرين منهم قد ماتوا تحت لهيب السياط ، وقد سطروا صفحات خالدة في تاريخ النضال وحب الشهادة ، من ذلكم علىٰ سبيل المثال لا الحصر :

كان بنو مخزومٍ يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ـ وكانوا أهل بيت إسلامٍ ـ إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول : « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة » .

---

(١) أي : ليجعلنَّ قبره موضع رحمة يتمسَّح الناس به ويتبرَّكون .

(٢) مستدرك الحاكم : ٣/ ٢٨٣ ، وسيرة ابن هشام : ١/ ٣٣٩ .

فأما أمه فقتلوها ـ قتلها أبو جهل ـ وهي تأبىٰ إلا الإسلام[1] .

وأما عمار فقد أحرقوه بالنار ، ولما مرَّ الرسول ﷺ به ورأىٰ شدة العذاب اقترب منه ومسح رأسه بيده الشريفة وهو يقول : « يا نار كوني برداً وسلاماً علىٰ عمار كما كنت علىٰ إبراهيم ، تقتلك الفئة الباغية »[2] .

لذلك كله ، نصرهم الله وأعلىٰ قدرهم في الدنيا والآخرة ، وكانوا بحق نواة المجتمع الإسلامي ، حيث قدّموا الغالي والنفيس في سبيل رفعة هذا الدين .

* * *

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ٣٤٢ ، دلائل البيهقي : ٢/ ٢٨٢ .

(٢) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد : ٣/ ٢٤٨ .

استهزاء المشركين بالرسول!!

(. . . ومشىٰ أبيّ بن خلف إلىٰ رسول الله ﷺ بعَظْمٍ بالٍ قد ارْفَتَّ : (انكسر) فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرمَّ ، ثم فتَّه بيده ، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ، فقال رسول الله : « نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار » .

فأنزل الله تعالىٰ فيه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس : ٧٨ـ٨٠])[1] .

* * *

فرسول الله ﷺ عُذِّبَ من قبل المشركين ، واستُهزىء به ، وأوذي أكثر مما أوذي صحابته ، وهذا دليل واضح علىٰ القدوة والأسوة ، فهو لم يقل لهم انطلقوا إلىٰ حمل لواء الدعوة ، ثم أخلد إلىٰ القصور والحدائق والجواري و . . !!

أبداً ، إنما كان ﷺ يسير أمامهم أو معهم ، في السلم والحرب ، في الشدة والرخاء ، وصدق الله تعالىٰ بقوله :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ٣٨٥ .

لذلك تحدثنا السيرة الطاهرة : أن أبا لهب وامرأته أم جميل كانا يلقيان في طريقه الشوك والحطب وما إلىٰ هنالك!! فأنزل الله تعالىٰ سورة المسد .

وأن أمية بن خلف كان إذا رأىٰ رسول الله همزه ولمزه!! فأنزل الله تعالىٰ سورة الهمزة .

وأن أبا جهل كان يستهزىء بما جاء به رسول الله!!

وأما العاص بن وائل ، لما سمع بموت القاسم وعبد الله ابني رسول الله ﷺ راح ينادي أمام الناس : يا محمد ، إنك أنت الأبتر ، فردَّ الله عليه ووبخه بقوله : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر : ١-٣] فصلىٰ الله عليه وسلم .

* * *

الأسوة هو رسول الله!!

قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حُدِّث أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة ـ أي أن الرسول يسفِّه أحلامهم ويعيب آلهتهم ويشتم آباءهم ـ بعث إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له ، فأبْقِ عليَّ وعلىٰ نفسك ، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق ، قال : فظنَّ رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاءٌ ، وأنه خاذله ومُسْلمُهُ ، وأنه قد ضَعُفَ عن نصرته والقيام معه .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر حتىٰ يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

قال : ثم استعبر رسول الله فبكىٰ ، ثم قام ، فلما ولّىٰ ناداه أبو طالب فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببتَ ، فوالله لا أسلمُكَ لشيءٍ أبداً[1] .

* * *

فداك أبي وأمي يارسول الله ، وأنت في مكة حيث العذاب والاستهزاء والسخرية ، وأنت من هناك تعلّم الأجيال الثبات علىٰ الحق ـ ومهما

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ٢٧٧ ، دلائل البيهقي : ٢/ ١٨٧ ، عيون الأثر : ١/ ٩٩ .

حدث ـ فلا تراجع ولا نفاق ، إنما هو الثبات والتمكين .

فمهما حاولوا من وضع إغراءات في الطريق ، فإن القضية أحد أمرين : إما الهلاك في سبيل الحق ، وإما نصرة الحق وإظهاره .

أجل يارسول الله! « فلو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري » لن أزيح عن الحق قيد أنملة .

فصلىٰ الله عليك وسلم يا أسوة الأجيال وقدوتهم إلىٰ يوم الدين .

* * *

إنه الرؤوف الرحيم!!

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ، قال : وتفعلون ؟

قالوا : نعم ، قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام ، ويقول : إن شئتَ أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئتَ فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة .

قال : « بل باب التوبة والرحمة »[1] .

* * *

شتّان بين من يطلب الدنيا وبين من يطلب الله تعالىٰ!!

إن قريشاً اجتمعت وجاءت إلىٰ رسول الله ﷺ تفاوضه وتحاوره :

تزعم أنك نبيّ يوحىٰ إليك ، وأن سليمان سُخِّر له الريح والجبال ، وأن موسىٰ سُخِّر له البحر ، وأن عيسىٰ كان يحيي الموتىٰ ، فادع الله أن يسيّر عنا هذه الجبال ، ويفجّر لنا أنهاراً ، فنتّخذها محارث فنزرع ونأكل ، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا ، وإلا فادع الله أن يصيّر هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك مثلهم!!

---

(١) مسند أحمد : ١/ ٢٤٢ ، دلائل البيهقي : ٩/ ٨ .

إنها قضايا تدور حول المأكل والمشرب والأموال والمزارع والذهب ، هذه هي الغاية من حياة أولئكم الكفرة .

أما الرسول ﷺ فكان يخاف عليهم شيئاً آخر ، إنه يخاف أن يدعو الله بذلك ، فيستجيب له ، ثم يكفروا به ، فيعاقبهم كما عاقب الأمم السابقة من قبل ، وكان يريد لهم أن يلجوا من باب التوبة والرحمة ، فهذه غاية أرقىٰ وأسمىٰ وأعلىٰ ، وصدق الله تعالىٰ وهو يصف الرسول بقوله : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

* * *

كلمة واحدة!!

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي ﷺ وعند أبي طالب مجلس رَجُل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، وشكوه إلىٰ أبي طالب فقال : يا بن أخي ما تريد من قومك ؟

قال : « إني أريد منهم كلمةً واحدةً تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم العجم الجزية » ، قال : كلمةً واحدةً ؟

قال : « كلمة واحدة » ، قال : « يا عم يقولوا : لا إله إلا الله » .

فقالوا : إلهاً واحداً ؟ ما سمعنا بهذا في الملَّة الآخرة إن هذا إلا اختلاق .

فنزل فيهم قول الله تعالىٰ : ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ [ص : ١-٧])[1] .

* * *

قبيل وفاة عم النبي ﷺ أبي طالب تنادىٰ زعماء قريش وحضروا إليه يريدون حلاً كاملاً للخلاف مع رسول الله ﷺ .

---

(١) سنن الترمذي : ٥/ ٣٦٥ .

ودخل الرسول علىٰ عمه ، فوجد القوم عنده ، فسأله عمه عن القضية الرئيسية التي يريدها من قومه .

فلخّص الرسول المسألة بكلمة واحدة ، هي التي تميِّز بين الإيمان والكفر ، وبها يصبح الرجل مؤمناً ، وبإنكارها يخرج الرجل إلىٰ ملة الكفر ، وهي كلمة التوحيد .

وهي الكلمة التي حملها كل أنبياء الله ورسله ، إنها شعار الموحدين وإلىٰ يوم الدين : لا إله إلا الله .

* * *

إلىٰ من تكلني ؟!

عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفي أبو طالب خرج النَّبي ﷺ إلىٰ الطائف ماشياً علىٰ قدميه يدعوهم إلىٰ الإسلام ، فلم يجيبوه ، فانصرف فأتىٰ ظلَّ شجرة فصلَّىٰ ركعتين ثم قال :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني علىٰ الناس أرحمَ الراحمين ، أنت أرحم الراحمين إلىٰ من تكلني ؟ إلىٰ عدوٍّ يتجهّمني أم إلىٰ قريبٍ ملَّكته أمري ؟ إن لم تكن غضبان عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بي غضبك أو يحلَّ بي سخطك ، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[1] .

* * *

بعد وفاة عمِّ النَّبي ﷺ أبي طالب ، ووفاة زوجته السيدة خديجة الكبرىٰ رضي الله عنها اللذين كانا أكبر نصيرين له . .

بعد ذلك اشتد أذىٰ المشركين للرسول والصحب الضعاف ، حتىٰ اضطر إلىٰ مغادرة مكة إلىٰ الطائف ، ملتمساً النُّصرة من بني ثقيف ، آملاً أن يجد لديهم الآذان الصاغية للدعوة إلىٰ الله تعالىٰ .

لكنّ أهل الطائف لم يكونوا أحسن حالاً من أهل مكة!! فكذَّبوه ،

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي : ٦/ ٣٥ .

واستهزؤوا به ، وعاندوا وكابروا ، وسلَّطوا عليه غلمانهم وعبيدهم وسفهاءهم ، فرموه بالحجارة حتىٰ أُدميت قدماه الشريفتان ، ثم طردوه شرَّ طردة ، فأسند ظهره إلىٰ حائط بستان ورفع تقريره إلىٰ الله تعالىٰ ، وهو يؤكّد فيه أن المشكلة لا تتعلق بطرده و . . . ، إنما يريد رضا ربه فقط ، وبعدها فليكن ما يكن ، وهذا الثبات لم يعرف مثله التاريخ من قبل ولا من بعد .

أجل! فهو الرسول المصطفىٰ ﷺ .

* * *

﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : لما أُسري بالنَّبي ﷺ إلىٰ المسجد الأقصىٰ أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتدَّ ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه ، وسَعَوا بذلك إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه ، فقالوا : هل لك إلىٰ صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلىٰ بيت المقدس ، قال : أوَ قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق .

قالوا : أوتصدّقه أنه ذهب الليلة إلىٰ بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إني لأُصدّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السماء في غدوة أو روحةٍ ، فلذلك سُمّي أبو بكر الصدِّيق[1] .

* * *

هنيئاً لك يا صدِّيق ! !

فكم كنتَ مقرَّباً إلىٰ قلب الحبيب المصطفىٰ ﷺ ؟

ويكفيكَ فخراً أنك الموصوف في القرآن : بصاحب رسول الله ، وذلك في رحلة الهجرة من مكة المكرمة إلىٰ المدينة المنورة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ

---

(١) مستدرك الحاكم : ٣/ ٦٢ ، دلائل البيهقي : ٢/ ٣٦١ .

سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿

[التوبة : ٤٠] .

وكان لا يفارق النَّبي ﷺ في كل الأحوال ، وأكرمه الله بأن جعل النبي صهره أيضاً ، وزاد في ذلك بأن جعله الخليفة من بعده ، وزاد في ذلك بأن جعله في جوار رسول الله في القبر .

كل ذلك لأنه باع نفسه لله وصدَّق الرسالة والرسول ، فكان القدوة والأسوة في ذلك[1] .

* * *

(١) للتوسُّع يراجع كتاب : الأسوة والقدوة في القرآن والسنّة ، للمؤلف : ٦٧ـ١٠٩ .

حبُّ الوطن!!

عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال : رأيت رسول الله ﷺ واقفاً علىٰ الحزورة[1] فقال : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلىٰ الله ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجتُ »[2] .

* * *

إنه لأمر صعب حقاً!!

فبعد مضي (٥٣) سنة من عمر رسول الله ﷺ ، يُطرد من بلده مكة ، والتي أحبَّها وعاش فيها ذكريات طفولته وشبابه ، بين أهله وأحبابه ، لكن وهو يودِّعها أثناء رحلة الهجرة إلىٰ المدينة المنورة ، لم ينكر جميلها ولم تغلبه فكرة الثأر من أهلها ، إنما نظر إليها مودعاً حزيناً ليقول لها : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىٰ الله » كيف لا ؟

وفيها الحرم الشريف ، حيث الذكريات الجميلة : فهناك الكعبة التي بناها خليل الرحمن وابنه إسماعيل ، وهناك بئر زمزم المبارك ، وهناك الصفا والمروة ، وهناك جبل الرحمة في عرفة و . . .

والرسول صبر علىٰ الأذىٰ واحتمل ، واستُشهد بعض صحابته تحت التعذيب ، ولم يترك باباً من أبواب الدعوة إلا وطرقه ، لكن دون جدوىٰ .

---

(١) سوق في مكة يقع إلىٰ جانب الحرم .

(٢) سنن الترمذي : رقمه (٣٩٢٥) ، سنن ابن ماجه : رقمه (٣١٠٨) .

إذاً : لا بد من الهجرة إلىٰ مكان آخر .

فما كان منه صلوات الله عليه إلا أن دعا لأهلها بالخير!! وكيف ذلك يارسول الله ؟ وهم قد فعلوا بك الأعاجيب ؟

« اللهم إنك أذقت أوَّلهم وبالاً ، فأذق آخرهم نوالاً »[1] .

إنه درس عظيم من دروس سيرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام وهو : حب الوطن من الإيمان .

* * *

(١) عيون الأثر : ١/ ١٨١ ، مجمع الزوائد : ٣/ ٢٨٣ .

عنكبوت وحمامتان!!

عن أبي مصعب المكي قال : أدركت أنس بن مالك ، وزيد بن أرقم ، والمغيرة بن شعبة ، فسمعتهم يتحدثون : أن النَّبي ﷺ ليلة الغار ، أمر الله عز وجل بشجرةٍ فنبتت في وجه النبي فسترته ، وأمر الله العنكبوت فنسجت في وجه النبي فسترته ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار ، وأقبل فتيان قريش من كل بطنٍ رجُلٌ ، بعصيِّهم وهراويهم وسيوفهم ، حتىٰ إذا كانوا من النَّبي ﷺ بقدر أربعين ذراعاً ، فجُعل رجل منهم لينظر في الغار فرأىٰ حمامتين بفم الغار ، فرجع إلىٰ أصحابه فقالوا له : ما لك لِمَ تنظر في الغار ؟ فقال : رأيت حمامتين بفم الغار ، فعلمت أنه ليس فيه أحد ، فسمع النَّبي ﷺ ما قال ، فعلم أن الله عز وجل قد درأ عنه بهما ، فدعاهنَّ النَّبي ﷺ فسَمَتَ[1] عليهنَّ ، وفرض جزاؤهُنَّ ، وانحدرن في الحَرَم[2] .

* * *

قرر الله تعالىٰ في القرآن الكريم أن لا أحد يعرف كيفية حفظ الله لمن شاء من عباده ، فقال تعالىٰ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] .

وهذا مثال واضح ، حيث أعلنت قريش عن جائزة كبرىٰ لمن يأتي

---

(١) أي : دعا الله تعالىٰ لهنّ بالبركة .

(٢) دلائل البيهقي : ٢/ ٤٨٢ ، طبقات ابن سعد : ١/ ٢٢٩ .

برأس رسول الله ﷺ حياً أو ميتاً ، وآل الحال بالرسول وصاحبه أن يدخلا الغار ، وتفرّق الشباب والفرسان في الوديان والسهول للتفتيش عنهما عسىٰ أن يحصلوا علىٰ الجائزة!!

لكن الله لم يرسل لهما طائرات الأواكس لتراقب الطريق ، ولم يبعث إليهما طائرات أسرع من الصوت ولا . . . !! إنما حمامة باضت وعنكبوت نسج!!

وإذا العنـايـة لاحظتـك عيـونهـا نَـمْ ، فـالمخـاوف كلهـنَّ أمـان

وكانت المكافأة لتلك الحمامتين ، أن حرَّم الله صيدهما وصيد نسلهما حتىٰ يوم القيامة ، وكل حمام الحرم الموجود اليوم هو من نسلهما .

* * *

إن الله معنا!!

عن عروة بن الزبير : (أن مشركي مكة ركبوا في كل وجه يطلبون النَّبي ﷺ - في حادثة الهجرة - وبعثوا إلىٰ أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الجُعل العظيم ، وأتوا علىٰ ثور ، الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي حتىٰ طلعوا فوقه ، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم ، فأشفق أبو بكر وأقبل عليه الهمَّ والخوف ، وقال للرسول : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا .

فقال الرسول ﷺ : « ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » ، ثم قال : « لا تحزن إن الله معنا » ، ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه سكينة من الله : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠])[1] .

* * *

ورحم الله الإمام البوصيري حيث قال :

أقسمتُ بالقمر المنشقّ أن له ... من قلبه نسبةً مبرورةَ القسمِ

وما حوىٰ الغار من خيرٍ ومن كرمٍ ... وكلُّ طرفٍ من الكفار عنه عَمِ

---

(١) للتوسع يراجع : صحيح البخاري : ٥/٨٣ ، مسند أحمد : ١/٨٤٨ ، دلائل البيهقي : ٢/٤٧٨ .

فالصِّدقُ في الغار والصدِّيقُ لم يردا وهم يقولون ما بالغارِ من أرَمِ
ظنُّوا الحمام وظنُّوا العنكبوت علىٰ خير البرية لم تنسجْ ولم تحُمِ
وقـايـة الله أغنـت عـن مضـاعفـةٍ من الدروعِ وعن عالٍ من الأطمِ

ومن كان الله معه فهل يخاف من شيء في هذا الوجود ؟!

ومن كان الله معه هل يخاف من مسألة الرزق ؟!

أبداً ، فالمعيَّة هنا ليست معيَّة بشر يموتون ، إنما هي معيَّة الحي الباقي الذي لا يموت سبحانه وتعالىٰ ، لكن ليس كل واحد ينال هذه الرتبة وأمثالها .

فكيف إذا كانت معيَّة الله لحبيبه محمد ﷺ ؟!

* * *

حقاً : إنه الصادق الأمين!!

قال ابن إسحاق : ولم يعلم ، فيما بلغني ، بخروج رسول الله ﷺ أحدٌ حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر .

أما عليّ فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلَّف بعده بمكة حتىٰ يؤدّي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحدٌ عنده شيء يخشىٰ عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ!![1] .

* * *

حقاً إنه لأمر عجب!!

هم يكذبونه ويستهزئون به ويقولون عنه ـ أي : أهل مكة ـ إنه كذاب ومخادع ، وفي المقابل يجعلون من بيته مستودعاً للأمانات ، يضعون فيه كل ما لديهم من الجواهر والأمور الثمينة وما إلىٰ هنالك!!

بل إنهم يطلقون عليه (الصادق الأمين) ، فكيف يكون صادقاً في بعض الأمور الدنيوية ولا يكون صادقاً في تبليغ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ؟

وهل يمكن أن يكون في الوقت نفسه صادقاً وكذّاباً ؟!

كذلك فهم يطلقون عليه صفة الأمين ، ويقومون بذلك فعلياً ، فهل

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/ ٩٨ ، سنن البيهقي : ٢٩٦ ، تاريخ الطبري : ٢/ ٣٧٨ .

يمكن أن يكون أميناً علىٰ أمور دنيوية ، ويكون في الوقت نفسه خائناً وغير أمين ؟

لكن المسألة كما قال تعالىٰ :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

* * *

ربح البيع!!

قال أبو عثمان النهدي : بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة ، قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثُر مالك عندنا ، وبلغتَ الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك!! والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي أتخلُّون سبيلي ؟

قالوا : نعم .

قال : فإني جعلتُ لكم مالي وهو تحت أسكفة الباب في البيت .

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : « ربح البيع أبا يحيىٰ ، ربح البيع »[1] .

وفيه أنزل الله تعالىٰ قوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

* * *

صفقة رابحة ، البائع فيها هو الله سبحانه وتعالىٰ ، والسلعة فيها هي جنة الله ، والمشتري فيها هو المؤمن التقي الورع .

فمن أراد الفوز برضوان الله سبحانه ، والدخول في نعيم جنانه ،

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣/ ٢٢٦ ، سيرة ابن هشام : ٢/ ٨٩ ، مستدرك الحاكم : ٣/ ٣٣٩ ، مجمع الزوائد : ٦/ ٦٠ ، دلائل البيهقي : ٢/ ٥٢٢ .

والتمتُّع بالنظر إلىٰ نور وجه ربه سبحانه ، فعليه أن يقدِّم الثمن .

لكن المشكلة هنا أن ثمن الجنة غالٍ ، وذلك إما أن يضحِّي المؤمن بماله في سبيل الله ، أو يقدِّم روحه فداءً للدعوة في سبيل الله .

فإن فعل نال السلعة ، وإلا فليست الجنان بالأحلام والآمال والتمنّي .

فرضي الله عن الصحابي صهيب ، حينما قدَّم كل ماله ثمن هذه السلعة الغالية ، وهي الجنة ، فبشره الله ورسوله بذلك الفوز العظيم .

* * *

طلع البدر علينا!!

عن ابن عائشة قال : لما قدم عليه السلام المدينة جعل النساء والصبيان يقلن[1] :

طلـــع البـــدر علينـــا ... مـــن ثنيـــات الـــوداع
وجـــب الشكـــر علينـــا ... مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعـــوث فينـــا ... جئـــت بـــالأمـــر المطـــاع
جئـــت شـــرفـــت العـــالـــم ... مـــرحبـــاً يـــا خيـــر داع

* * *

لما وصل خبر خروج النَّبي ﷺ من مكة إلىٰ المدينة ، راح المسلمون في المدينة المنورة يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح وحتىٰ منتصف النهار .

وكانوا ينتظرون النبي المنقذ علىٰ أحرٍّ من الجمر ، حتىٰ إذا ما وصل مع صاحبه أبي بكر ، كان أول من رآهما رجل من اليهود ، فصرخ بأعلىٰ صوته : يا أهل الأوس والخزرج ، هذا جدُّكم قد جاء!

وهرع الجميع إلىٰ الشوارع وإلىٰ خارج المدينة المنورة لتكتحل عيونهم برؤية الحبيب الذي طال انتظاره ، فلما رأوه ﷺ أطلقوا شعارات وأهازيج فيها الترحاب والاحتفاء والشوق ، من ذلك :

---

(١) فتح الباري : ٨/ ١٢٩ ، دلائل البيهقي : ٥/ ٢٦٦ .

جاء نبي الله ، جاء نبي الله! يا محمد ، يارسول الله! الله أكبر ، جاء محمد رسول الله!

وفيها هذه الأنشودة التي يحفظها غالبية المسلمين ، ويرددونها في أفراحهم ومناسباتهم ، وخاصة الدينية منها وهي : طلع البدر علينا . . .

بل روىٰ الإمام أحمد بالسند المتصل إلىٰ أنس رضي الله عنه قال : لما قدم النَّبي ﷺ المدينة لعبت الحبشة لقدومه بحرابهم فرحاً بذلك[1] .

وحُقَّ لهم ذلك ، أما نحن : فيا ليتنا كنا معهم فنفوز فوزاً عظيماً!!

* * *

(١) المسند : ٣/ ٢٢٢ .

يا حبذا محمدٌ من جار!!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما دخل المدينة جاءت الأنصار برجالها ونسائها ، فقالوا : إلينا يارسول الله ، فقال : « دعوا الناقة فإنها مأمورة » .

فبركت علىٰ باب أبي أيوب ، قال : فخرجت جَوار من بني النجّار يضربن بالدفوف وهنَّ يقلن :

نحن جوار من بني النجّار يا حبَّذا محمدٌ مِنْ جارِ

فخرج إليهم رسول الله ﷺ ، فقال : « أتحبوني ؟ » فقالوا : أي والله يارسول الله ، فقال : « أنا والله أحبكم ، وأنا والله أحبكم ، وأنا والله أحبكم »[1] .

* * *

إنه القدوة والأسوة محمد ﷺ .

وهو الرحمة للعالمين ، وهذا نموذج رائع للعيشة التي كان يعيشها رسول الله ، فهو لم يدخل إلىٰ المدينة المنورة بموكب إمبراطوري ، إنما دخل ماشياً ومعه أبو بكر الصدِّيق ، فلما خرج الجميع لاستقباله ، وكان معهن بعض الفتيات وهنَّ يضربن بالدفوف ، فاستقبلهن الرسول بكل

---

(١) صحيح البخاري : ٥/ ٤٠ ، دلائل البيهقي : ٢/ ٥٠٨ ، سنن ابن ماجه : ١/ ٦١٢ .

بشاشة وجه ورحابة صدر ، وحاول عليه الصلاة والسلام أن يتحدث معهنَّ بكل لطف ، فسألهنَّ : « أتحبوني ؟ » .

فأجبنه : نعم يارسول الله ، فبيَّن لهنَّ مقدار حبه لهن ، وذلك حين أكَّد ثلاث مرات بقوله : « أنا والله أحبكم » .

وصدق الله تعالىٰ بقوله : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح : ٢٩] فهو معهم في كل أمورهم ، معهم لا قبلهم ، معهم لا وراءهم ، معهم لا فوقهم ، فصلوات الله عليه وسلامه .

* * *

ما هو أشدُّ يومٍ علىٰ النبي ؟!

عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النَّبي ﷺ حدثته : أنها قالت لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، هل أتىٰ عليك يوم كان أشدَّ من يوم أُحدٍ ؟

فقال : « لقد لقيت من قومك وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كُلال ، فلم يُجبني إلىٰ ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ علىٰ وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب[1] ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني فنظرت فإذا فيها جبرئيل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

قال : فناداني ملك الجبال وسلَّم ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين »[2] .

فقال له رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً »[3] .

* * *

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان (٧/ ٦٥) : هي ميقات أهل نجد تلقاء مكة .

(٢) الأخشبان : جبلان حول مكة ، أحدهما أبو قبيس ، والآخر قعيقعان .

(٣) صحيح البخاري : ٤/ ١٣٩ ، صحيح مسلم : ٣/ ١٤٢٠ ، شرح السنة للبغوي : رقمه (٣٧٤٧) .

وهذا نموذج آخر مما لاقاه النَّبي ﷺ من أذىٰ قريش واستهزائهم به وما إلىٰ هنالك .

إنه صلوات الله عليه يدعوهم إلىٰ الهداية والخير ، ولكنهم يعاندون ويريدون منه العودة إلىٰ الأصنام والأزلام والخمر و . . . !! (أريد حياته ويريد موتي) .

فخرج النبي مهموماً حزيناً ، فجاءه ملك الجبال يستأذنه في أن يطبق عليهم الجبلين ، لكن نبيَّ الرحمة كان يريد لهم الهداية .

وإلا فما الفائدة من أن يعذب الله قومه ؟!

* * *

رفعة مكانة النبي عند ربه!!

في القرآن الكريم نرىٰ أمراً عجباً!

فعندما يخاطب الله تعالىٰ الأنبياء السابقين ، يكون النداء بالأسماء فقط ، مثال ذلك قوله تعالىٰ مخاطباً آدم عليه السلام : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

وعندما يكون الخطاب إلىٰ نوح عليه السلام ، يقول الله تعالىٰ : ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ ﴾ [هود : ٤٨] .

وعندما يكون الخطاب موجهاً إلىٰ موسىٰ عليه السلام ، يقول الله تعالىٰ : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] .

وعندما يكون الخطاب موجهاً إلىٰ خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، يقول الله تعالىٰ : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٤ـ١٠٥] .

وهكذا في كل خطاب إلهي موجه لنبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام .

لكن من عظيم قدره ، ورفعة مكانته ﷺ عند ربه سبحانه وتعالىٰ ، أن الله لم يناده باسمه ، ولم يخاطبه بشخصه ، إنما كان يخاطبه بالنبوة أو الرسالة ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾

[المائدة : ٤١] .

وقوله أيضاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] .

فالصلاة والسلام علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين ، وخاصةً خاتمهم عليه أفضل الصلاة والسلام .

* * *

شرف نسبه ﷺ

قال القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي (ت : ٥٤٤ هـ) رحمه الله تعالىٰ :

. . . وأما شرف نسبه ﷺ وكرم بلده ومنشئه ، فممّا لا يحتاج إلىٰ إقامة دليل عليه ، ولا بيان مُشكل ولا خفيّ منه ، فإنه نخبة بني هاشم ، وسلالة قريش وصميمها ، وأشرف العرب ، وأعزّهم نفراً من قبل أبيه وأمه ، ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله علىٰ الله وعلىٰ عباده .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً ، حتىٰ كنتُ من القرن الذي كنت منه »[١] .

وعن العباس رضي الله عنه قال : قال النَّبي ﷺ :

« إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم ، من خير فِرَقِهِمْ ، ثم تخيَّر القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخيَّر البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً ، وخيرهم بيتاً »[٢] .

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله اصطفىٰ من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفىٰ من ولد

---

(١) صحيح البخاري : ٤/ ٢٢٩ .
(٢) سنن الترمذي : ٥/ ٥٨٤ .

إسماعيل بني كنانة ، واصطفىٰ من بني كنانة قريشاً ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنه ـ فيما رواه الطبري ـ أن النَّبي ﷺ قال : « إن الله اختار خلقه ، فاختار منهم بني آدم ، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار من العرب فاختار منهم قريشاً ، ثم اختار قريشاً فاختار منهم بني هاشم ، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم ، فلم أزل خياراً من خيار ، ألا من أحبَّ العرب فبحبي أحبَّهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم »[2] .

* * *

(١) صحيح مسلم : رقمه (١٧٨٢) .

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ : ١/١٠٨ـ١٠٩ .

بشارات!!

لدىٰ استعراض أحاديث رسول الله ﷺ ، يجد الباحث أن الله سبحانه أكرم هذه الأمة ورحمها ، وذلك بأن قرر أنها ستدخل الجنة كلها!!

مصداق ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لتدخلن الجنة كلكم ، إلا من أبىٰ وشرد علىٰ الله كشرود البعير » .

قالوا : يارسول الله! ومن يأبىٰ أن يدخل الجنة ؟

فقال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبىٰ »[1] .

وزاد في رواية أخرىٰ : « فمن لم يصدقني فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل : ١٥-١٦] كذَّب بما جاء به محمد ﷺ وتولىٰ عنه »[2] .

فمن الناس ـ من هذه الأمة ـ من يدخل الجنة بالشفاعة ، مصداق ذلك قول رسول الله ﷺ : « إن الرجل من أمتي ليشفع للفئام[3] من الناس ، فيدخلون الجنة بشفاعته ، وإن الرجل ليشفع للقبيلة من الناس فيدخلون

---

(١) مجمع الزوائد : ١٠/ ٧٠ .

(٢) مستدرك الحاكم : ١/ ٥٦ ، مجمع الزوائد : ١٠/ ٧١ .

(٣) أي : الجماعة الكثيرة .

الجنة بشفاعته ، وإن الرجل ليشفع للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته »[1] .

وبشارة رسول الله ﷺ : « ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً ـ أو سبعمئة ألف ـ متماسكون ، آخذ بعضهم بعضاً ، لا يدخل أولهم حتىٰ يدخل آخرهم ، ووجوههم علىٰ صورة القمر ليلة البدر »[2] .

لذلك يتمنىٰ الكفرة أن يكونوا مع المؤمنين : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر : ٢] .

* * *

(١) سنن الترمذي : رقمه (٢٤٤٠) ، مسند أحمد : ٣/ ٦٣ .

(٢) صحيح مسلم : رقمه (٣٧٣) .

صدق نبوءة رسول الله!!

في طريق الهجرة إلىٰ المدينة المنورة ـ وقد وضع المشركون جائزة كبيرة لمن يأتي بالنبي ﷺ حياً أو ميتاً ـ انطلق سراقة بن مالك يبحث عن رسول الله ، ولنستمع إلىٰ حديثه :

. . . فلما دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدي إلىٰ كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرّهم أم لا ، فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأزلام ، حتىٰ إذا اقتربت منهما ساخت يدا فرسي في الأرض حتىٰ بلغتا الركبتين ـ وتكرر ذلك ثلاثاً ـ فناشدته الله الأمان ، فتقدمت منهما فقال لي : « أخف عنا » ، ثم نظر إليَّ وقال : « كأني بك يا سراقة تلبس سواري كسرىٰ » .

فقلت متعجباً : كسرىٰ بن هرمز!!

قال : « نعم »[1] .

* * *

إنها الثقة المطلقة بالله تعالىٰ .

فهو الرجل الطريد الشريد ، والذي خرج من بلده مكة سراً ، ثم التجأ مع صاحبه أبي بكر الصدِّيق إلىٰ غار ثور ، ومع كل هذا يقول لسراقة : « كأني بك يا سراقة تلبس سواري كسرىٰ » .

---

(١) للتوسع يراجع : صحيح البخاري : ٥/ ٧٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٣/ ١٨٥ .

وكسرىٰ وقتئذٍ كان يحكم أعظم إمبراطورية في العالم ، وهي بلاد فارس ، فمن الذي يصل إليه ؟!

ودار الزمن دورته ، فأعلن سراقة بن مالك إسلامه ، ولما كان عهد الفاروق عمر رضي الله عنه ، سقطت دولة الفرس علىٰ يد المسلمين ، فحُملت الأموال كغنائم من بلاد فارس إلىٰ مدينة رسول الله ، ولما وُضعت أمام الفاروق عمر ، نظر إليها فدمعت عيناه ، ونادىٰ سراقة فألبسه سواري كسرىٰ وتاجه ، وهكذا تحققت نبوءة سيدنا رسول الله ﷺ .

* * *